الكلام فى الشكر..

الدرس العشرون

لفضيلة الشيخ سليمان المدني

الشكر هو عرفان النعمة من المنعم والفرح بها والعمل بمقتضى ذلك الفرح.. اما عرفان النعمة فهو بان يعلم الانسان بان المنعم الحقيقى واحد وهو الله سبحانه وتعالى، وأن الوسائط ليست إلّا اسبابا يقيضها الله سبحانه وتعالى لايصال نعمه الى العبد. وان الله سبحانه وتعالى هو الذى أورد فى قلوبهم من الاعتقادات والارادات ما صاروا مضطرين للايصال اليه والاعطاء له ومعونته فى ذلك الوجه، فالمنعم الحقيقى والمعطى الحقيقى هو الله سبحانه وتعالى... فاذا عرف العبد هذه الطريقة وهى أن الله سبحانه وتعالى هو المنعم وانا ماسواه ليس الا اسبابا وان هذه الوسائط التي تكون بين الناس هى من جملة تلك الاسباب فى ايصال النعم، يقال انه عرف المنعم.

وهذه المعرفة وان كانت داخلة فى حد الايمان من جهة فهي ايضا داخلة فى حد الشكر من جهة اخرى، وهى شكر للقلب. واما الفرح بالمُنعم فله درجات متفاوتة اعلاها ان يفرح بالمنعم لا بالانعام ولا بالنعمة، وانه اذ يطرح بالنعمة انما يفرح بها من حيث انها تعينه على قربه اى قرب المُنعم، وتمكنه من الوصول الى رضاه، ولذلك فاصحاب هذه الدرجة يحزنون فيما اذا وصلت اليهم نعم تشغل بعض أوقاتهم عن الله سبحانه وتعالى، فانهم عندئذ يرونها ابتلاء اكثر منها نعمة....

وأما العمل بمقتضى ذلك الفرحُ فهو يكون بالقلب واللسان والجوارح، أما بالقلب فيظهر الخير للمنعم، يظهر توطين النفس على طاعة المنعم وعدم معصيته ومناصحته وهذا، من انواع الشكر القلبى، وان يستعمل النعمة ليستعين بها على التقرب الى المنعم، وتنفيذ اوامره، وتحقيق ما يعلم انه يرضيه، وان يتّقي الاستعانة بها على ما يسخطه ومالايرضيه، وهذا هو الشكر بالجوارح، فشكر العين مثلاً، استعمالها فى طاعة الله، شكر نعمة البصر استعماله فى طاعة الله، بالنظر فى كتاب الله، بالنظر الى وجوه العلماء مثلا، بالنظر فى كتب الفقة والحديث والعقائد وغير ذلك، لا بالنظر الى ما حرم الله على الانسان ان ينظر اليه، وبما اننا ذكرنا نعمة البصر لنضرب مثلا بكفران النّعمة، استعمالها فى معصية الله كفران لتلك النّعمة، وان من ينظر الى ما يعصي الله بعينه، لا يكفر بنعمة العين فقط ولكنه يكفر بنعمة الضوء ايضاً، فان البصر يتم بالضوء ويتم بالباصرة، فالباصرة وحدها من دون مصدر ضوئى لا تفي بالرؤية والمصدر الضوئى ايضا من دون باصرة سليمة لا تفي الرؤية، فمن يكفر بنعمة العين لا يكفر فقط بنعمة الجارحة وسلامة الجارحة، انما يكفر بنعمة وجود الشمس، يكفر بنعمة وجود القمر، يكفر بنعمة جميع المصادر الضوئية التى تمكنه من رؤية الاشياء، وانما رزق الله عباده بالعين لينظر بها الى ما يفيده وما يضرّه فيقدم على ما يفيده ويجتنب ما يضرّه. وفى الحقيقة ان كفر اية نعمة كانت تكون كفراً بنعمة الوجود كله، فان الله فى الاصل عندما خلق السموات والارض وما فيهنّ وما عليهن وما بينهن انما خلقها ليستفيد الخلق منها ليتوصلوا الى طاعته، فان الطاعة تحتاج الى شيئين، تحتاج الى فكر والى ذهن، ولا يمكن تمام الفكر والذهن الا ببقاء البدن، ولا يبقى البدن الا بوجود الارض والسماء والماء والهواء والنار وغيرهن من الاشياء، فكفر اية نعمة من النعم التي انعم الله بها على الانسان لا يعد كفراً لتلك النعمة الجزئية فقط، وانما هو كفر بالوجود كله بنعمة وجود الكون كله، ومنها وجود الانسان ذاته، لأنّ نعم الله سبحانه وتعالى مترابطة ومتواصلة وحتى ان شيئاً بعيداً ربما يبعد عنك ملايين السنين الضوئية نه تاثير قوى فى تمكنك من هذا الفعل قد لا تكون شاعراً به وقد لا تكون عالماً به ولكن باعرتكابك أو بإستعمالك تلك القوة فى هذه المعصية فانت لم تكفر فقط بنعمة هذه القوة وانما بذلك الشيء البعيد الذى يبعد عنك ملايين السنين الضوئية وله تاثير فى تمكنك من إرتكاب هذا الفعل واستعمال هذه القوة

فالشكر بالجوارح اذن كما قلنا هو استعمال نعم الله سبحانه وتعالى فى تنفيذ ما أمر به ان يوصل، لا فى قطع ما أمر به ان يوصل والشكر فى حقيقته هو نصف العبادة ونصف الطاعة، ولما كان معظم الخلق لا يتمكنون من القيام بالشكر، قال الله سبحانه وتعالى (وقليل من عبادي الشكور) أما الكفار فهم يشركون به حتى فى المصدرية اذ يعتقدون ان من يعطيهم شيئاً منعماً والحال انه فى الحقيقة واسطة بالانعام وليس منعماً، فحقيقة الشكر لله كما حق شكره ان تعلم انك لا تتمكن من شكره. فى الرواية عن الامام الصادق صلوات الله عليه : اوحى الله الى موسى ابن عمران ان ياموسى اشكرني حق شكرى قال: يارب وكيف اتمكن من شكرك حق شكرك، وشكرك نعمة تستحق الشكر عليها؟ فقال ياموسى الان وقد عرفت ذلك فقد شكرتني حق شكرى. غاية الانسان فى الشكر ان يعلم انه عاجز عن الشكر كما انه سبحانه وتعالى جعل غاية ايمان المؤمنين ان يعلموا بانهم عاجزون عن ادراكه وقبل منهم ذلك، كذلك فى مقام الشكر اعتبر ان غاية شكر الشاكرين ان يعلموا بانهم عاجزون عن شكره، فاذا اعتقد الانسان ذلك وعمل به، صار شاكراً لله حق شكره..

والشكر فى الحقيقة هو مصدر الزيادة، فما من انسان تَرِدُ اليه النعمة فيشكرها الا وتكتب له الزيادة فى ساعتها، وذلك من قوله تعالى (لئن شكرتم لازيدنكم ولئن كفرتم فإنّ عذابي لشديد)، وان كان الشكر فى هذه الآية انما هو بمعنى الطاعة، من قبيل قوله تعالى: (ان اشكر لي ولوالدي) بمعنى اطعني واطع والدي وسوف نتكلم عن الشكر بمعنى الطاعة بعد ان ننتهى من الكلام عن المعنى الخلقى للشكر.

والشاكر يأمن من الغيرْ كما فى الرواية عن الامام السجّاد صلوات الله وسلامه عليه، والمقصود بالغيرْ تغيّر الحال من الصلاح الى الفساد، لان الشكر سبب لدوام النعمة كما أنّ الكفر سبب لزوال تلك النعمة، والشكر يكون باللسان ومنه قول المؤمن (الحمد لله رَبِّ العالمين) ومنه قول المؤمن وهو يصعد الى ربه (سبحان

المنعم الحقيقي هو الله سبحانه وتعالى والانسان ما هو الا وسيط لايصال النعمة

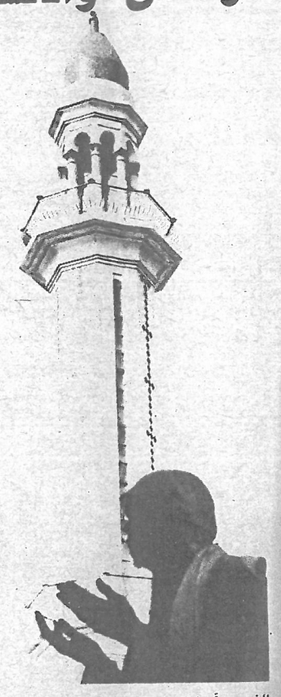

الذي سخّر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وانّا إلى ربنا لمنقلبون) ومنه قول المؤمن وهو يدخل بيتاً فيقول (ربِّ ادخلني مدخل صدق واخرجني مخرج صدق) وغير ذلك، على ان الاستعاذة من البلايا ايضاً من الشكر لله سبحانه وتعالى، رب استعاذ النبي صلى الله عليه واله، والانبياء والائمة المعصومون يستعيذون ايضا من البلايا، وكان من دعائهم كما ورد فى القرآن (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة، وفى الاخرة حسنة وقنا عذاب النار). فإذن الدعاء بدفع البلاء لا ينافى الشكر بل هو ايضا من لُبِّ الشكر والنعم منها الظاهرة والباطنة، والباطنة قد لا يشعر بها الانسان، والظاهرة تكون نوعين، نعم دينية ونعم دنيوية. النعم الدينية كالهداية الى الاسلام، التوفيق الى معرفة الاحكام والتوفيق الى معرفة الاعتقادات الصحيحة، والتوفيق الى معرفة حق الائمة صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين، فهذه كلها نعم دينية من الله سبحانه وتعالى الى عباده ان يوفقهم الى معرفته ان يوفقهم الى طاعته والى اتباع انبيائه ورسله، فبسعدوا سعادة ابدية... كما ان كفر هذه النعمة كفر النعمة الدينية، وعدم استعمالها فيما امر الله به يؤدى ايضا الى الشقاء الأبدي، من جحد اية من آيات الله، من انكر نبيّاً من انبياء الله، انكر كتاباً من كتب الله انكر صفات الله سبحانه وتعالى وغير ذلك، هذا فى الحقيقة كفر بنعمة المعرفة والعلم الديني، هذا يؤدى به الى الشقاء الابدي... وهناك ايضا النعم الدنيوية ومنها الصحة مثلا وسلامة الافراد والجمال والجاه والمال وغير ذلك وهذه كلها نعم دنيوية، ولكنها قابلة لان يُتَوَصَّل بها الى مرضاة الله سبحانه وتعالى، كما ان لها القابلية فى التوصل بها الى معاصي الله سبحانه وتعالى...

فاذن استعمال النعم فى طاعة الله شكر، واستعمالها فى معصية الله كفران بهذه النعم، ولقد كان النبي صلى الله عليه وعلى اله اذا وردت عليه النعمة يقول (الحمد لله على هذه النعمة) واذا وصله شيء يسوءه يقول (الحمد لله على كل حال) وعن الصادق عليه الصلاة والسلام، ان النبي صلى الله عليه واله كان فى بيت عائشة ليلتها فقالت له يارسول الله لماذا تجهد نفسك طيلة الليل، وقد غفر الله لك من ذنبك ما تقدم وما تاخر، فقال اولا اكون عبداً شكوراً؟

الشكر هو - راس نعم الله، ومن ألهم الشكر ألهم الزيادة، ومن أعطي الشكر أعطى الزيادة، بل أعطي التوفيق كله، فالشكر وقد عرفناه بهذا المعنى الخلقي، يأتى ايضا بمعنى الطاعة الشكر يعنى الطاعة، ونحتاج الى ان نفصّل هذ الجملة وذلك ان العلماء رضوان عليهم اختلفوا فى الطاعة، الطاعة طبعاً لا يستطيع المولى ان يقول اطعني، المولى يصد اوامر ولكن امر (اطعني) لا يستطيع المولى ان يصدره لانه لاجل الطاعة ايضا يحتاج الى اصدار امر ثان بطاعة الامر بالطاعة فيحتاج الى اصدار امر ثالث بطاعة الامر بالطاعة وهكذا يتسلسل، فاذن الطاعة لا يمكن ان يصدر امر من المولى اى مولى، سواء كان مولى عاجز او المولى الحقيقى الذى هو الله سبحانه وتعالى، لايستطيع ان يقول اطعني... وما ورد من الآيات فى القرآن الكريم انما هو قبيل الارشاد والتنبيه والا فهذا من واجب العالم ان يطيع المولى، فالانسان مثلا اذا اعتقد مولوية جهة من الجهات او فرد من الافراد او اعتقد بالله سبحانه وتعالى ومولويته يشعر بوجوب طاعة المولى ايا كان هذا المولى اذا اعتقد بمولويّته، فهذا الشعور بوجوب الطاعة من اين جاء للانسان؟

فى الاجابة على هذا السؤال يختلف فيه العلماء، فمنهم من يذهب الى ان الانسان انما يحكم بوجوب الطاعة بدليل عقلي، وهو ان الانسان يشعر بحسن الطاعة وقبح المعصية، فاذا نظر الى حسن الطاعة والى قبح المعصية حكم بوجوب الطاعة وحرمة المعصية، وسبب هذا النظر الخوف من العقاب، وان العقل يفرض على الانسان دفع الضرر المحتمل، ومعصية المولى فيها ضرر محتمل لما فى الكتب من وعيد ولما الفه الناس فى حياتهم العملية من تطبيق العقوبات التى يجعلونها تطبق على من يخالف اوامرهم، فيحكم العقل على الانسان بوجوب دفع الضرر المحتمل. ولا يتم ذلك الا بطاعة اوامر المولى فيحكم العقل بوجوب طاعة المولي... فاذن الدليل الذى يلجىء الانسان الى الطاعة هو دليل عقلي عملي، هذا هو قول بعض العلماء.

قوم اخرون قالوا هذا وان كان ممكنا لكن ماذا تفعلون فى طاعة الذين بلغوا الدرجات العليا من الايمان، الذين لا يطيعون الله خوفا من ناره ولا طمعا فى جنته. ما الذي جعلهم يوجبون على انفسهم الطاعة؟ على انه ليس فى القرآن اشعار بهذا.. وقال هذا البعض ان وجوب الطاعة لا يرجع الى العقل العملي بمعنى أدق لا يرجع الى دليل العقل وانما يرجع الى العقل الفطري. فالانسان وهو يشعر بجميل المنعم والمحسن عليه يشعر بوجوب رد الاحسان اليه، ورد الاحسان لا يكون الا باظهار الخير واخلاص النية لذلك المحسن أن يكافؤه بالاحسان على احسانه، وليس هناك من مكافاة للاحسان على احسان المحسن اكثر من شكره على ذلك الاحسان وهذا هو معنى الطاعة.. فالطاعة فى حقيقتها ليست الا ما يشعر به الانسان فطرة من لزوم رد الاحسان بالاحسان، والى هذا المعنى اشعار فى كتاب الله سبحانه وتعالى فى سورة الرحمن (هل جزاء الاحسان الا الاحسان) والسؤال هنا سؤال استنكاري..

وايضا بهذا المعني يحمل قوله تعالى (ان اشكر لي ولوالدي) بمعنى ان اطعني واطع والدي.. وفى الحديث عن السجاد صلوات الله وسلامه عليه (يؤتى بالعبد يوم القيامة ويقال له هل لاشكرت فلانا؟ فيقول يارب شكرتك ولم اشكره، فيقول الله سبحانه وتعالى ما شكرتني ان لم تشكره، ولذلك ورد فى الحديث عن النبي (ص) (اشكر الناس لله اشكرهم لعباده) بدليل على ان الشكر يرجع الى الفطرة واذا كان راجعا الى الفطرة فهو لا يتاثر فى مقام التحسين العقلي مطلقا ورد الاحسان بالنسبة للمحسنين يكون بتفاوت فمثلا رد التحية تكون بتحية ولكن رد احسان المولى لا يكون باعطائه شيئا لان كل ما عند العبد هو من عنده، فليس من رد لاحسان المولى الا لزوم طاعته وتجنب معصيته. فاذن تكون الطاعة وتكون المعصية فى حقيقتهما من باب الشكر، شكرّ النعمة ونكران النعمة وصلى الله على محمد وعلى اله الطيبين والطاهرين.

الفرح بالمنعم له درجات متفاوتة اعلاها ان يفرح بالمنعم لا بالانعام ولا بالنعمة